

ملامح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي

الأخضر قويدري

قسم علم النفس وعلوم التربية

جامعة الأغواط

يتناول هذا المقال أحد المجالات الهامة في علم النفس الإسلامي، وهو مجال "علم الخواطر" الذي كان للصوفية دورا كبيرا في تأسيسه، وذلك من خلال اهتمامهم المتواصل بالقلب البشري وتتبع ما يحدث فيه من تفاعلات نفسية، التي لها أثر بالغ في تحديد مسار الفعل الإنساني سلبا وإيجابا.

ومما لاشك فيه أن الغزالي أبو حامد كان أحد الصوفية البارزين في تعميق هذا العلم وربطه بالجانب الديني والأخلاقي.

وستتضح لنا من خلال هذا المقال أهمية هذا العلم، وقيمة ما يتضمنه من أبعاد أخلاقية ونفسية كما يتصورها الغزالي.

مدخل الدراسة :

تميّز الصوفية، بسير أغوار النفس وتحليل خلجات القلوب وتتبع هواجس الباطن. وقد كان غرضهم في ذلك غرض أخلاقي ديني إذ أن "أعمال الجوارح ليست إلا تعبيرا عن خطرات القلوب ومن ثمة فإن معرفة القلب والكشف عن السرية، أمران لازمان للأخلاق"¹.

¹ صبحي أحمد محمود، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، ص236.

ملاح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخضر قويدري
وإذا كان الفقهاء قد اهتموا بدراسة الأعمال الظاهرة وتحديد مدى
مطابقتها أو مخالفتها للشرع الحنيف¹، فإن الصوفية قد اشتغلوا بخطرات القلوب
- إذ هي محركات الإرادات والأعمال - وأطلقوا على ذلك العلم علم
الباطن، أو فقه الباطن، والذي يتمثل في معرفة الأحكام المتعلقة بأفعال القلوب².

ولقد كان للغزالي إسهاماته المتميزة في هذا العلم، بحيث استفاد من سبقه
خاصة الحارث المحاسبي (ت 243هـ) وأبا طالب المكي (ت 386هـ)، وجاء
بإضافات جديدة كان لها أبلغ الأثر في إثراء التصوف الإسلامي.

والسؤال الذي يطرح أمامنا هو: ما هي معالم هذا العلم عند الغزالي؟ وإلى
أي مدى يمكن استثمار نتائجه في ميدان علم النفس الإسلامي؟

أولاً: طبيعة الخواطر ومنشؤها:

أكد الغزالي على قيمة علم الخواطر، بالنسبة للمسلم عامة، ولسالك طريق
التصوّف على وجه الخصوص، فذهب إلى أنه "فرض عين على كلّ عبد"³،
لأنّ تعلمه يصحح أعمال الإنسان ويوقفه على تدع النفس ومكايد الشيطان⁴.
ولقد استند - كغيره من الصوفية - في بناء هذا العلم، إلى الحديث الذي ورد
عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قوله: "إن في القلب لمتان، لمة من الملك، إيعاد
بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله.
ولمة من العدو، إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك

¹ أنظر: السراج أبو نصر عبد الله بن علي، اللمع، تحقيق كامل مصطفى الهنداوي، بيروت، دار الكتب
العلمية، 1421هـ، 2001م ص 25.

² ابن خلدون عبد الرحمن، شفاء السائل، تحقيق الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، بيروت، المطبعة
الكاثوليكية، بدون تاريخ، ص 27.

³ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ ج 3، ص 30.

⁴ المرجع السابق.

ملاحم علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخصر قويدري
فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم تلا قوله، ﴿الشيطان يعدكم بالفقر
ويأمركم بالفحشاء﴾¹.

وعلم الخواطر، من أغمض علوم المعاملة² لما يكتنفه من الغموض
والتلبسات التي تنشأ عن تداخل المشاعر القلبية

والهواجس النفسية، والتي لا يستطيع التمييز بينها والكشف عنها إلا من
أوتى ثلاث مواهب هي: غزارة العلم، ونور التقوى، وقوة البصيرة³.

وبما أن لكل علم من علوم الدين رجال مختصون فيه، يرجع الناس إليهم في
فض ما أشكل عليهم من أمره "فكذلك من أشكل عليه علم من علوم هؤلاء
الذين تكلموا في مواجيد القلوب، ومواريث الأسرار ومعاملات القلوب
... فليس له أن يرجع في ذلك إلا لعالم ممن يكون هذا شأنه، ويكون ممن قد
مارس الأحوال ونازلها واستبحث عن علومها ودقائقها"⁴ ومن فعل غير ذلك
فقد أخطأ السبيل وتكرر للتخصص والخبرة.

والخواطر كما يحدها الغزالي هي: "آثار تحدث في قلب العبد تبعثه على الفعل أو
الترك"⁵ وفي تعريف آخر له هي: "ما يحصل في القلب من الأفكار والأذكار"⁶.

ومما سبق يمكننا الاستنتاج أن الخواطر عبارة عن أفكار تنقذح في قلب
الإنسان وتخطر فيه، ومنها تتكون البداية الأولية لما سيقدم عليه الإنسان من
سلوكات مختلفة.

¹ المرجع السابق، ص 27.

² المرجع السابق، ص 30.

³ المرجع السابق.

⁴ السراج، المجمع، ص 23.

⁵ الغزالي أبو حامد، روضة الطالبين، ضمن رسائل الغزالي، نسخة منقحة مصححة بإشراف مكتب البحوث
والدراسات، دار الفكر، بيروت، 2000 م. ص 135.

⁶ الغزالي أبو حامد. إحياء علوم الدين، ج 3، ص 26.

ملاحم علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخضر قويدري
والحل الذي تنشأ فيه الخواطر هو القلب. وقد أوضح الغزالي علاقة القلب
بالخواطر بأمثلة ثلاث هي:¹

1. أن القلب بمثابة قبة مضروبة لها أبواب كثيرة، ومن هذه الأبواب
تسرب الخواطر كتسرب أشعة الشمس من ثقوب القبة.
 2. كما أن القلب يشبه مرآة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها من صور وهي الخواطر.
 3. والقلب بمثابة حوض تترل عليه الخواطر كتزول المياه من أنهار مختلفة.
- أما عن مصدر تلك الخواطر، فقد بين الغزالي أنها ترجع إلى أربعة مصادر
غيبية روحانية مختلفة، حددها في ما يلي:

- 1- الخاطر الإلهي: وهو عبارة عما "ما يحدثه الله تعالى في قلب العبد ابتداء،
ويقال له الخاطر فقط"²، أما عن أثره في قلب الإنسان فإنه "قد يكون خسيرا
إكراما، وقد يكون شرا امتحانا"³.
- 2- الخاطر الملكي: يتمثل في الإيحاءات التي يملئها ملك من الملائكة على قلب
طاهر نقي. ويسمى إلهاما⁴، ولا يكون إلا بالخير، إذ هو ناصح مرشد⁵.
- 3- الخاطر النفساني: ينتج عن طبع النفس الإنسانية ومزاجها، ويكون موافقا
لهواها، ولذلك لا يأمر إلا بالشر⁶.
- 4- الخاطر الشيطاني: عبارة عما يملئه الشيطان ويوسوس به في قلب
الإنسان، ولذلك اصطلح على تسميته بالوسواس. وهو لا يأمر إلا بالشر، وربما
أمر بالخير مكررا واستدراجا⁷.

¹ المرجع السابق.

² الغزالي أبو حامد، روضه الطالبين، ص 135.

³ المرجع السابق.

⁴ الغزالي أبو حامد، قانون التأويل، ضمن رسائل الغزالي، ص 584.

⁵ الغزالي أبو حامد، روضه الطالبين، ص 135.

⁶ المرجع السابق.

⁷ المرجع السابق، وكذا قانون التأويل، ص 584.

ملاح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخضر قويدري
ويذهب الغزالي إلى أن هذه الخواطر مهما اختلفت مصادرها فإنها تصدر
جميعها من الله تعالى خالق كل شيء¹، لكنها تتنوع بعد ذلك، بحسب قدرته
وقضائه وحكمته في خلقه.

ثانياً: قواعد التمييز بين الخواطر:

يربط الغزالي -كغيره من الصوفية- بين علم الخواطر والدين. وقد أبدى
أسفه على ما آل إليه طلاب العلم في عصره إذ أنهم أهملوا هذا العلم "واشتغلوا
بعلوم تستجر لهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان، وتنسيهم عداوته وطريق
الاحتراز منه"² ولذا نجد بحث على ضرورة تعلم هذا العلم لما له من فوائد،
أهمها أنه يمكن صاحبه من التمييز بين الواردات النورانية والظلمانية التي ترد
على قلبه، والتي تعتبر بدايات للأعمال كلها. وإذا لم يحكم المسلم أمر أعماله
يوشك أن يكون على خطر.

وقد لاحظ الغزالي من خلال خبرته الروحية أن غفلة الإنسان وقلة حضوره
مع الله ترجعان أساساً إلى كثرة الخواطر الظلمانية التي تتزل به، إذ لا يلهيه عن
الحضور والخشوع إلا الخواطر الواردة الشاغلة، ولا يوجد دواء شاف لتلك
العلة إلا في مكابدة الحضور ودفع تلك الخواطر وقطع موادها.³

يبد أن معرفة تلك الخواطر الظلمانية وتمييزها عن غيرها ليس بالأمر الهين
لأن " هذا العلم من أغمض علوم المعاملة"⁴. ولأجل هذا السبب وضع
الغزالي مقاييس يمكن الاستناد إليها في معرفة نوعية الخاطر الذي نزل بالقلب
وهي كالتالي:

¹ الغزالي أبو حامد، روضة الطالبين، ص 135.

² الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج 3، ص 30.

³ المرجع السابق، ج 1، ص ص 161، 162.

⁴ المرجع السابق.

ملاحم علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخصر قويدري

أ- المقياس الأول: وهو مقياس عام يوضح فيما إذا كان الخاطر خيرا أو شرا، وتنطوي تحته ثلاثة معايير جزئية هي¹:

1. معيار الشرع: فإذا كان الخاطر موافقا للشرع فهو حق، وإذا كان مخالفا له فهو شر.

2. معيار الإقتداء: ويتمثل في عرض الخاطر على سير الصالحين، فما كان موافقا لسيرتهم فهو خير، وإلا فهو شر.

3. معيار الميل النفسي: ومفاده أن السالك يعرض الخاطر على نفسه، فما رفضته فهو حق - لأن الحق يثقل عليها - وما قبلته فهو باطل موافق لهواها.

ب- المقياس الثاني: وقد وضعه الغزالي للتمييز بين خواطر الشر فحسب، فقد يكون خاطر الشر من الله امتحانا، وقد يكون من الشيطان، كما قد يكون من النفس، ولذا وجب استعمال المعايير الموالية للتمييز بين تلك الخواطر وهي:

1. معيار الثبات والتردد: فإذا كان الخاطر شرا لكنه ثابت مصمم على حالة واحدة، فهو من الله امتحانا، أو من هوى النفس. وإن كان مترددا غير ثابت على حالة واحدة فهو من الشيطان².

2. معيار الذنوب: إن كان خاطر الشر عقب ذنب أحدثه العبد، فهو من الله عقوبة له على ذنب اقترفه. وإن لم يكن عقب ذنب فهو من الشيطان³.

3. معيار ذكر الله: إن كان خاطر الشر لا يضعف ولا يقل ولا يزول من ذكر الله تعالى، فهو من النفس، وإن ضعف، أو قل، أو زال من ذكر الله، فهو من الشيطان⁴.

¹ الغزالي أبو حامد، روضة الطالبين، ص 135.

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

⁴ المرجع السابق، ص 136.

ملاح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخصر قويدري

ج- المقياس الثالث: ويفيد هذا المقياس في التمييز بين خواطر الخير
فحسب، وبيان مصادرها، وينقسم إلى أربعة معايير:

1. معيار الثبات والتردد: فإن كان خاطر الخير متردد لا يثبت على حالة
واحدة فهو من الملك، وإن كان ثابتا فهو من الله¹.

2. معيار الطاعات: إن كان خاطر الخير قد ورد على القلب إثر اجتهاد من
العبد أو طاعة، فهو من الله، وإلا فهو من الملك².

3. معيار أعمال الباطن والظاهر: إن كان خاطر الخير متعلقا بأعمال الباطن
أو الأحوال فهو من الله، وإن كان متعلقا بالأعمال الظاهرة، أو الفروع فهو من
الملك، لأن الملك لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد³.

4. معيار التأني وتقدير العواقب: إن ورد خاطر الخير مع عجلة لا مع تأن،
ومع أمن لا مع خوف، ومع عمى العاقبة لا مع التبصر، فهو من الشيطان
استدراجا. وإن صحبه تأن، وخشية، وتبصر بعواقب الأمور، فهو إما من الله،
أو من الملك⁴.

هذه المقاييس التي وضعها الغزالي، يستطيع الإنسان - خصوصا المرید
الصوفي- أن يتفطن لنوعية الخواطر التي ترد على قلبه. لكن يجب التنبيه أن
تطبيق تلك المعايير في الميدان يحتاج إلى مرافقة شيخ مرب، خبير بهذا العلم وإلا
وقع الإنسان في كثير من الأوهام والوساوس والاستدارجات. ولهذا كثيرا ما
ردد الغزالي - كغيره من الصوفية- أن "من لا شيخ له فشيخه الشيطان"⁵.

¹ المرجع السابق.

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

⁴ المرجع السابق.

⁵ الغزالي أبو حامد، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ضمن رسائل الغزالي، ص 493.

ملاح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخصر قويدري
والخطاب موجه إلى المرید الصوفي علی وجه الخصوص تنبیها له من مغبة
سلوك طریق الریاضة الروحية بمفرده، دون أن یرافقه فی ذلك شیخ عارف
بطرق المجاهدة وفنونها.

وقد بین الغزالی فی نقده للانحراف الصوفي أن كثيرا من المنتسبين للتصوف
اغتروا ببعض ما ورد علیهم من إلهامات وأسقطوا عن أنفسهم تكالیف
الشریعة، وكل ذلك محض وهم واستدراج، سببه قلة علمهم، وانتهاجهم طریق
التصوف بدون مشائخ عارفين¹.

ثالثا: تحلیل مراحل الفعل الإنساني:

قسم الغزالی أحوال القلب الممهدة للفعل إلى أربع مراحل وهي:

1. مرحلة الخاطر: وهو خطور فكرة الفعل في القلب².
2. مرحلة الميل: وهو هيجان شهوة النفس، ورغبتها الملحة في تنفيذ تلك الفكرة³.

والإنسان لا يؤخذ شرعا عن الخاطر والميل مهما كان وصفهما "لأنهما لا
يدخلان تحت اختيار العبد"⁴ وهذا طبقا لقوله صلى الله عليه وسلم "عفا الله
لأمي ما حدثت به أنفسها"⁵.

3. مرحلة الاعتقاد: وهو ما حكم عليه الإنسان بقلبه، جازما بالقيام بالفعل الذي خطرت فكرته⁶ وينقسم الاعتقاد إلى قسمين:

¹ الغزالي أبو حامد، القواعد العشر، ضمن رسائل الغزالي، ص 44.

² الغزالي أبو حامد، روضة الطالبين، ص 141.

³ المرجع السابق.

⁴ المرجع السابق.

⁵ المرجع السابق.

⁶ المرجع السابق.

سلامح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخضر قويدري

• اعتقاد اختياري: وهذا النوع يدخل في دائرة المسؤولية الإنسانية، ولذا يواخذ الإنسان عليه¹.

• اعتقاد اضطراري: وهذا النوع خارج عن دائرة المسؤولية الإنسانية، ولا يواخذ عليه صاحبه.

4. مرحلة الهم بالفعل: فالهم ليس حديث نفس، لأنه جاء بعد اعتقاد جازم، ومن هنا كانت المواخذه عليه في الشرع. وقد يهيم الإنسان بالفعل ثم لا ينفذه، وفي ذلك تفصيل:

• إذا هم العبد بفعل قبيح ولم ينجزه ندما منه وخوفا من الله تعالى، كتب له حسنة².

• إذا هم العبد بفعل قبيح ولم ينجزه بسبب عائق منعه، كتب له سيئة³.
ومن خلال ما سبق تظهر لنا قدرة الغزالي على تتبع تطور الفعل الإنساني، وعلى ربط كل ذلك بالمقاصد الدينية، الأمر الذي لا نجده في علم النفس الحديث الذي أبعد الدين من مجال اهتماماته، وصار يوظف علم النفس في مجالات علمية وعلاجية فحسب⁴.

رابعا: مكانة علم الخواطر:

لقد قدم الغزالي في حديثه عن علم الخواطر، عصارة ما وصل إليه من خلال تجاربه الروحية، مستفيدا في ذلك مما سجله أساطين التربية الصوفية قبله، وهم يتحسسون خلجات قلوبهم، ويتنصتون إلى أدق العواطف الإنسانية التي تنبجس

¹ المرجع السابق.

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

⁴ السليماني محمد حمزة، العلاج النفسي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، مجلة الثقافة النفسية، مركز الدراسات النفسية والنفسية، العدد 25، المجلد 7، كانون الثاني، 1996، ص 94، 95.

ملاح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخضر قويدري
منها الأفعال، خيرها وشرها. ولا شك أنه لا يوجد في علماء المسلمين قاطبة
من تفرد بالخوض في هذا العلم إلا الصوفية. وليس هذا التفرد بالذي يقدر في
العلوم الإسلامية الأخرى، بل إنه إسهام علمي عظيم رضع به الصوفية تاج
الحضارة العربية الإسلامية فحازوا بذلك قصب السبق في تأسيس علم النفس
الإسلامي بأعمق معانيه.

فلا غرابة إذن، أن نجد الغزالي يصف ذلك العلم بأنه "من العلوم اللطيفة
والأسرار الشريفة"¹. ومكمن الشرف واللطافة فيه، أنه متعلق بتصحيح مبادئ
الأفعال في أول نشوئها، وتطهيرها من كل شائبة، وذلك هو جوهر عملية
التركية والتطهير التي نادى بها الصوفية.

ولا شك أن ما قدمه الغزالي وتكلم عنه الصوفية في علم الخواطر مبني
أساساً على المنهج الاستبطاني، الذي يستطيع الإنسان بواسطته، أن يعاين ذاته،
وينفذ إلى باطنه، ليستشف أنواع الخواطر التي ترد على قلبه. وهذا ما أقره علم
النفس الحديث، مع اختلاف شديد في المبادئ والغايات.

بيد أنه لا ينبغي الاكتفاء بقراءة تلك المعايير التي قدمها الغزالي، ومحاولة
تطبيقها ميدانياً، لأن ذلك لا يجدي شيئاً ما لم يكن هناك مرشد نفسي خبير
بتفاصيل هذا العلم وهو الشيخ المري.

وقد أكد الغزالي أن الخواطر تلتبس حتى على العلماء الذين لا حظ لهم من
هذا العلم، فصور لنا مشهداً محزناً فضيعاً لعالم لعبت به الأهواء، واستدرجه
الشیطان لطريق الهلاك، بسبب جهله بهذا العلم، بحيث يأتيه الشيطان ناصحاً،
موسوساً له بضرورة إنقاذ الناس من الجهل "وهو لا يزال يقرر ذلك في نفسه

¹ المرجع السابق، ص 136.

سلامح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخصر قويدري
ويستجره بلطف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس"¹. ثم يوسوس له بالتزين لهم
وتحسين لفضه أمامهم ويقول له: "إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من
قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق. ولا يزال يقرر ذلك عنده، وهو في أثناءه يؤكد فيه
شوائب الرياء وقبول الخلق، ولذة الجاه، والتعزز بكثرة الأتباع والعلم
والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار"²، فيستدرجه من حيث لا يعلم، إلى أن تنقلب
دعوته إلى الله، فتصبح دعوة إلى نفسه "فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير، وإنما
قصده الجاه والقبول"³.

و إذا كان الغزالي قد تحدث عن زلات العلماء، وغرورهم، لجهلهم بعلم
الباطن، فلأنه عاش التجربة ذاتها قبل تصوفه، حيث شهد بذلك على نفسه
فقال: "كنت أعلم العلم الذي به يكتسب الجاه، وأنا الآن أعلم العلم الذي
به يترك الجاه"⁴.

ولخطورة ذلك الأمر، وعد — رحمه الله — بتأليف كتاب يضم فيه تجاربه
فيما يتعلق بمشكلة التلبيسات التي تحدث للعلماء والعوام على السواء فقال: "وإن
أمهل الزمان، صنفنا فيه (أي في علم الخواطر) كتابا على الخصوص، نسميه تلبيس
إبليس فإنه قد انتشر الآن تلبيسه (أي إبليس) في البلاد والعباد، لا سيما في
المذاهب والاعتقادات"⁵. لكنه انتقل إلى رحمة الله ولم يكتب له تأليف كتاب
بهذا العنوان. ومع ذلك فقد أشار إلى بعض التلبيسات في حديثه عن الغرور في
الجزء الرابع من إحياء علوم الدين.

¹ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج3، ص30.

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

⁴ الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الكريم المراق، الدار التونسية للنشر، 1984م، ص83.

⁵ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج3، ص30.

ملاحح علم الخواطر عند أبي حامد الغزالي ————— الأخصر قويدري
ولعلّ ابن الجوزي (507هـ - 597هـ) قد استهوته مقاصد الغزالي، فألف
كتابا يحمل العنوان نفسه، ضمنه كثيرا من التلييسات التي وقع فيها العلماء
والفلاسفة والعباد وحتى الصوفية، ولم يسلم الغزالي نفسه من انتقاداته.

— خلاصة الدراسة:

هكذا تظهر لنا عبقرية الغزالي في إثراء علم النفس الإسلامي حيث
استطاع أن يربط ما ذكره الأوائل من شيوخ التصوف قبله بتجاربه الذاتية،
ويبدع أفكارا في علم النفس الإسلامي غرضها الأول والأخير خدمة
الدين والأخلاق.

ومن الغريب أن تبقى جهود الصوفية في ميدان علم النفس مغيبة، لا ينظر
إليها إلا على أنها جزء من التراث الذي لا أثر له في حاضرنا العلمي، مع أنه
يمكن لنا استثمار تلك الجهود في حقول معرفية كثيرة، خاصة في علم النفس.
وقد تنبه إلى هذا الأمر بعض المختصين في الدراسات النفسية الإسلامية،
فراحوا يدعون إلى ضرورة تأسيس علم نفس صوفي يستلهم نظرياته مما أبدعه
العلماء المسلمون عامة، والصوفية منهم على وجه الخصوص¹.

¹ أنظر: النجار عامر، التصوف النفسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص 479.